المغامرة السوداء!

زهيرة البيلى

استيقظ سكان إحدى القرى النمساوية فى احدى ليالى شهر يولية عام ١٩٧٣ على صوت انفجار هائل . وفى صباح اليوم التالى تم العثور على أشلاء صغيرة لا يتجاوز الواحد منها ١٥ سنتيمترا وبقايا جثة فى قاع حفرة بلغ عرضها عدة أمتار .

بعد أن انقضت لحظات الدهشة الأولى . جمع رجال البوليس هذه الأشلاء فى سلة صغيرة وصل وزنها حوالى اثنى عشر كيلوجراما . أما رأس الجثة فلم يعثر عليه . وحتى النهاية لم يكن له بالفعل أى أثر . احتفظ الطبيب الشرعى بالسلة التى تعرف بداخلها على جزء من صدر به شعر . وأثر لعملية جراحية . هذا الشىء القليل الذى لا يفيد فى التعرف على شخصية القتيل .

لكنه فى مساء نفس اليوم . جاءت امرأة لتبلغ عن اختفاء ابنها (٢٥ عاما) الذى يعمل موظفا فى احدى المحاكم . وكان الابن مشتركا فى بطولة الكاراتيه فى اليابان . لذلك كان عليه التوجه إلى المطار للانضمام لباقى الفريق . وقد غادر المنزل لكنه لم يصل قط إلى المطار . وهنا أبلغ أحد أصدقائه (٢٣ عاما) ويعمل مهندسا بأنه أثناء تناوله طعام الإفطار فى أحد المقاهى رآه فى صباح نفس اليوم من خلف الزجاج وكان يبدو أنه على عجل . وكانت تلك الشهادة دليلا كافيا أنه مازال على قيد الحياة .

لكن الطبيب الشرعى كان له رأى آخر . لأنه نقلا عن الأم أن الشاب كان يصدره شعر . وأنه سبق أن أجريت له عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية . وأن نفس فصيلة دمه تتفق ودم الضحية والتى كانت من النوع النادر .

ومنذ ذلك اليوم لم يتلق البوليس أى أنباء عن الابن المختفى . ولكن بعد ثلاثة أيام استدعى الخبير السرى . الشاهد الوحيد الذى أكد أنه رأى صديقه المختفى فى اليوم الثانى للانفجار . وكان الشاهد شابا فارع القوام مفلطح الأنف بعض الشىء . له نظرات غريبة تبعث من عينين ليس بهما رموش . ادعى ذلك الشاهد وهو مهندسا أنه رأى صديقه من خلف نافذة المقهى . كما أكد أنه كان على عجل . ولهذا السبب لم يناده . وأخذ الخبير السرى يمسح نظارته وهو يتأمل ذلك الشاب أمامه . فمن المحتمل أنه يكذب . ولكن ما الهدف ؟ هذا ما سيحاول اكتشافه فيما بعد . فإن كان صديقه قد توفى فمن المؤكد أن هذا الكذب لن يعيده ثانية إلى الحياة . وسيظل اختفاؤه قائما . ولكن الشبهة هنا سوف تتحول . وتوجه إليه شخصيا .

ذكر الخبير السرى أنه لابد أن يكون للبوليس تأثير قوى . . ووسط هذا الحنون والذعر يمكن أن تكون شهادة المهندس مجرد باعث نبع من خوف شخصى ومحاولة لإبعاد الشبهة عنه شخصيا لأى سبب . لكن بعد أن تعرف رجال البوليس على الجثة وتأكدوا أن الابن المختفى هو الذى تم العثور عليه قتيلا وسط الانفجار . اختلف الأمر تماما . وكان على المهندس الشاب أن يعيد أقواله .

بدا المهندس شاحب الوجه . أخذ يتنفس بصعوبة ويلمعان تبادل النظرات الغريبة الحاوية من الرموش مع الخبير السرى . ذلك الشاب الذى يشبه الضفدعة أصر على أقواله السابقة مدعيا أنه لا يمكن أن يخطئ صديقه خاصة أنهما كانا يمارسان لعبة الكاراتيه معا ويشتركان فى هواية واحدة هى جمع الأسلحة . والمتفجرات .

أخذ الخبير يسير داخل الحجرة ذهابا وإيابا وهو يفكر بعمق شديد . لقد ثبت بعد التحريات أن المهندس ووالده ضمن مجموعة من الغواة المتعصبين . الذى يعملون على جمع الأسلحة النادرة . وكان الوالد مديرا عاما لشركة سويسرية فى النمسا . ومن الواضح أنهم ينتمون لتلك الطبقة الميسورة الحال . وفى مزرعتهم بالنمسا تم العثور على أجهزة ومعدات غربية باهظة الثمن . ومبانى المزرعة لم يكن واضحا عليها الصيانة للغاية . وقد دهش رجال البوليس أنفسهم من هذه الاكتشافات . لأنهم رأوا غرفة للتعذيب .

وقف الخبير السرى يتأمل الشاب الذى استرد أنفاسه بصعوبة . ودار الخبير حول مكتبه كما لو كان يفكر بتركيز . ماذا يفعلون بتلك السلاسل والأطواق والمسامير ؟ ثم جلس الخبير وهو يبتسم وقال للشاب : « لابد ان والدك على علم بوجود غرفة التعذيب هذه . ولابد أنه يملك مالا وفيرا حتى انه أقام بها عازلا للصوت . انكم تعلقون ضحاياكم على جدران المزرعة . ألم تستخدموا هذه الحجرة فى التعذيب ؟ » فأصر المهندس على أفكاره وقال إنها مجرد حجرة يحتفظون بداخلها « تمرمى للتشين » تخرينه هو ووالده وأحيانا صديقهم المختفى .

وهكذا تطور الحديث بلا رابط حتى حانت ساعة الغداء . فسمح الخبير للمهندس الشاب بالتوجه لتناول غدائه حينما يشاء مستخدما سيارته الخاصة . لكن بمجرد عودته اتخذت المحادثة شكل الاستجواب التقليدى . . وعندما حدد المهندس أن صديقه كان يرتدى كالمعتاد قميصا وبنطلونا رمادى اللون . أكد له الخبير أنه نقلا عن والده القتيل تبين أنه كان يرتدى « بلوفر » فى هذا اليوم . وعلى الفور تدارك المهندس الأمر مدعيا أنه لا يتذكر . ولكن عندما سأله الخبير فى أى اتجاه كان يسير صديقه تردد الشاب قليلا ثم أكد أنه كان عائدا من الطريق الرئيسى ! . وأنه كان يتجه إلى محطة الأتوبيس . بينما فى الحقيقة أن محطة الأتوبيس كانت على الجانب الآخر من الطريق . وحتى إذا ادعى الشاب أنه كان يعمى السير فى الشمس . فهناك شىء لم يستطع المأمور شرحه أو إيجاد سبب له . أو مبرر فكيف أن المهندس يتناول افطاره فى مقهى مغلق اذ كان هذا اليوم هو يوم عطلة رسمية وأمام هذه المفاجأة الجديدة طلب الخبير من المهندس أن يفكر قليلا فى هذه المشكلة تاركا إياه ليتوجه للحظات إلى مكتب المأمور .

وسط هذا الجدوء المصطنع السحب الخبير إلى مكتب المأمور الذى يتولى التحقيق . والذى كان من رأيه أن الشاب حقا غريب الأطوار . مدلل من أبويه . خاصة أمه . . فقد نشأ وفى فمه ملعقة من ذهب . لدرجة انه لم يكلف دراسته ولم يلق أبدا أية معارضة . بل كان يفعل كل ما يحلو له . ومنذ الصغر كان والده يسبح بحنونه وحبه وتعصبه بل ووقه بالأسلحة والمتفجرات . وهنا اقترح المأمور ضرورة اللجوء إلى النيابة للحصول على اذن بالقبض عليه . فالعملية جادة . وبما أنها حادثه بسبب إجراء بعض التجارب على المتفجرات . أو أنها مراهنة غبية انتهت بمحاولة لإخفاء الفضيحة .

لكن كان هناك تفسير آخر . فهذا المهندس الشاب مريض . ذكى . لكن عمره العقلى لا يتجاوز عقل طفل فى السادسة من عمره . وهذا لأنه لم يعرف أى مانع أو معارضة لرغباته . والذى حدث أنه ربما أراد ذلك الصديق شراء بعض المعدات . ومن المحتمل أنهما اختلفا على السعر . وأمام ثورة الغضب قتله .

حقيقة إن شرح الخبير كان ذا أهمية خاصة . لكنه ارتكب فى نفس الوقت خطأ جسيما وبعد أن وضع أصبعه على لب المشكلة . لم يتوقع أن المهندس الذى لم يعارضه أحد فى حياته والذى لم تصادفه أية محنة عدا هذا الاستجواب . بدأ فجأة ولأول مرة فى حياته يناقض نفسه هذا بعد أن شعر بالخناق يضيق حوله وبأنه أصبح مطاردا . تصرف وكأنه طفل صغير فى حالة غضب . ولكن للأسف ومن المحزن أن هذا الطفل الصغير الغاضب مسلح بمسدسين اخفاهما تحت سترته . الشىء الذى لم يشك الخبير فى وجودهما منذ اللحظة الأولى .

انطلقت أولى الرصاصات عندما كان الرجلان يتحدثان فى مكتب المأمور . وتعالى الصراخ . وقى الممر أخذ أحد الخبراء يتلوى على الأرض ممسكا ببطنه . بينما اختبأ الآخر فى فتحة فى أحد الجدران . وأدت آثار الرصاصات إلى تطاير الجبس من حوله . فقفز باقى الخبراء فى الممر إذ كان معظمهم غير مسلحين . وحتى المسلحون منهم لم يجرؤوا على اطلاق النيران خوفا من حدوث أية إصابات .

أخذ المهندس يطلق النيران على رجال البوليس وهو فى جنون حقيقى . . واستطاع الوصول إلى ممر يطل على نافذة مفتوحة . وهنا اعترض طريقه رجل بوليس مسن تلقى ثلاث طلقات ووقع صريعا متأثرا بجراحه . وعلى ارتفاع خمسة أمتار قفز المهندس على ظهر سيارة . فوجئ سائقها بوجه يظهر أمامه من خلف الزجاج . وجه له نظرات غريبة بجحون وبلا رموش أيضا . أما فوهة المسدس فقد اصطدمت بالزجاج .

وفى حالة ذعر نزل السائق ليرى المهندس وهو ينطلق بالسيارة كالاعصار . . وبعد لحظات توقف الشاب عند بائع أسلحة فى احدى

ضواحى فينا . بعد أن قدم للبائع ترخيص حمل السلاح ، وقام بشراء مسدس جديد وأربع علب من الرصاص . أى ٢٠٠ طلقة إنها عدد ضخم حقا .

وفى مثل هذه الظروف أعلنت حالة الطوارئ فى المدينة . وانتشر رجال الأمن فى كل مكان . ورابطت ثلاث سيارات بوليس أمام منزل أسرة المهندس . كانت الأم تطردها بالداخل . وللحظات أخذ الخبر يتأمل تلك المرأة النحيفة وآثار جمال سابق مازال باديا على وجهها . شعرها قصير جدا ، ووجنتاها غريضتان . رقيقة للغاية من النوع الذى يعانى من الخوف المستمر . تتمتع بصوت غنى . بدون شك أن هذا الخبر وهذا الغناء هما اللذان صنعا هذا العملاق ابنها لم تكن المرأة تعرف أين ذهب زوجها الذى غادر البيت منذ نصف ساعة فقط .

وبعد أن تلقى مكالمة تليفونية من الابن أخذ يحرق بعض الأوراق ثم انصرف على الفور .

وكانت بالمنزل مجموعة رائعة ونادرة من الأسلحة والمنجورات . على المكتب انطبعت عليه الرصاص . تماما كما لو كان الأب قد أخذ حفنة منها قبل رحيله . إذ كان يحمل مسدسا معه . وكان الرماد فى المدفأة حيث أحرقت الأوراق مازال ساخنا .

مرت ليلة بأكملها دون أن يعثر البوليس على أثر للمهندس الشاب . ولكن فى صباح يوم الأحد وفى حوالى الساعة العاشرة والنصف تلقى البوليس أول إشارة تنبئ عن اختفاء المهندس . لقد اختفى المهندس بعد أن حل الظلام داخل بيت من طابق واحد باحدى ضواحى فينا . وعندما أصبح الصباح وفى حوالى الساعة العاشرة والربع كان سكان ذلك البيت ، وهما رجل وزوجته فى الخامسة والخمسين من عمريهما . جاءا لقضاء الليلة فاكتشفا وجوده . لكن المهندس اطلق عليهما النيران وفر هاربا بعد أن استولى على سيارتهما ، وعندما وصل الجيران وبعد سماعهم لصوت الأعيرة النارية كان الزوجان قد فارقا الحياة وهما ممددان فوق أرض الشرفة الواسعة وسط بركة من الدماء .

وفى هذا اليوم الأحد من يوليه عام ١٩٧٣ فضل سكان مدينة فينا الصمت عوفا من أن يلتفوا بتلك النظرات الغريبة الحاوية من الرموش من المهندس الذى يبلغ الثالثة والعشرين من عمره

تصميم محمد ابراهيم

والذى تحول بين يوم وليلة إلى عدو من الدرجة الأولى وإلى مطارد يتبعه البوليس فى كل مكان . لذلك ظن رجال الأمن أنه ربما هرب إلى الخارج واستطاع الإفلات من فتحات الشباك التى أقيمت حول فينا . وكان الخبر هو الوحيد الذى لا يصدق هذا الاحتمال الأخير .

- حتى هذا اليوم لم يكن الخبر سوى رجل بسيط . أما الآن فيؤخذ رأيه فى كل شىء بصفته الوحيد الذى تعامل عن قرب مع المهندس الهارب . وأخذ يكرر أنه لا يعتقد أن الشاب قد فر إلى خارج البلاد . ولكن الأرجح أنه يختبىء فى مكان ما بالقرب من بيته فقد انحصرت فكرة الخبر فى أن الشاب يدور فى حلقة مفرغة وهذا لأنه حريص على أن يبقى بالقرب من أمه . فليس له أصدقاء ولا حتى صديقة معينة . وقد قال فى أحد الأيام لواحد من جيرانه إنه لن يتزوج أبدا . وهذا لأنه لا توجد امرأة جديرة به . والمرأة الوحيدة التى يحترمها هى أمه . لذلك كان الخبر متأكدا أنه حتما سوف يلجأ إليها . وكان بالفعل على حق .

فى هذه الأثناء وعلى شاطىء الأدرياتيك . جاءت عائلة من فينا لقضاء العطلة . ونزلت من السيارة ليستقر أفرادها فى أحد الفنادق . وتأكد الأب أن الخريدة التى يشترك فيها والتى تسمى « أنباء فينا » سوف تصله بانتظام .

وفى نفس اللحظة جاء حداد شاب للصيد على حافة قناة . عندما بلغ الشاطىء فوجىء بشاب أخذ يتأمله ويرمقه بنظرة غريبة لا رموش فيها .

تقدم المهندس من الرجل واستولى على مفاتيح سيارته وبعد عدة لحظات أخرى شاهده ٤٠٠ كشاف وهو يترك تلك السيارة ليقفز فى اخرى . كما عثر طبيب اسنان فى كوخه على بقايا لطعام وبعض ملابس . إذ غير المهندس ثيابه قبل أن يسرق سيارة الطبيب وبعض أسلحه الصيد و١٣٠ طلقة رصاص .

وعلى شاطىء الأدرياتيك بدأ رب تلك الأسرة يشعر بالضيق الشديد والملل بعد يومين فقط من بداية المصيف . لذلك أخذ يقرأ الخريدة كلها وحتى الاعلانات المبوبة . أما آخر ما قرأه فكان الآتى : « ١٩١٩ انتظرتك يوم الاثنين بالقرب من البرج ولكنك لم تأت . سوف أعود ثانية إلى هناك يوم الأربعاء والخميس فى حوالى الساعة التاسعة . إننى حاليا فى ٣٢٦ - ٧٤ - ٧ » ، ولم تكن تلك الأرقام سوى رقم تلفون المنزل الريفى الذى تملكه تلك الأسرة فى فينا . ولم يجد الأب حلا لهذا الغموض سوى أن هناك ضيوفا غير مرغوب فيهم قد هاجموا المنزل . ولم يشعر الاب بالضيق واخطر البوليس الايطالى الذى اخطر بدوره النمرول فينا ، الذى حذر بوليس القرية . وبالقرب من فيلا تلك الأسرة وقفت سيارة طبيب الاسنان . فيلا قائمة على ربوة مرتفعة . تغرى أى رجل مسلح على أن يتمسك بمكانه فيها .

وفى هذه الأثناء دق جرس التليفون فى منزل المهندس . كان الوالد هو الذى تحدث إلى زوجته ليخبرها أنه على ما يرام وأنه سوف يعود قريبا من امسا . أما المكالمة فكانت فى الحقيقة من سويسرا .

وسط القرية الصغيرة وحول المنزل الريفى تجمع ١٧٠ رجلا . يرتدون الخوذ . وهم مزودون بالأسلحة الاتوماتيكية . وبالقابل المسيلة للدموع . يرتدون الصديرى الحديدى الواقى من الرصاص ، ومعهم مجموعات من الكلاب البوليسية التى اخذت تتقدم ببطء وحرص وبعد عشر دقائق وفى الوقت الذى اقترب فيه رجال البوليس من المبنى ظهر المهندس الشاب من الباب المفتوح . مثل المخبون ممكسا مسدسين . واخذ يطلق الرصاص فى كل اتجاه . فكانت عملية انتحارية حقيقية . بعد أن اصابته طلقتان فى الرأس والذراع . واخذ يترنح ووقع على الأرض بلا رجعة ، ولكن لم تنته عملية المهندس عند هذا الحد . وبقى الوالد الغارب .

استمر الخبر فى تفتيش منزل الشاب . كما حاول حل رموز وشفرة كل قطعة ورق صغيرة تقع بين يديه . وفى النهاية عثر على ما اسماه مفتاح الشفرة التى كان يستعملها الأب وابنه . كتاب عن المغامرات الفه الأب . من النوع الرخيص الغابط . فى هذا الكتاب جسد الاب نفسه على أنه بطل استطاع الوصول بواسطة طائرة إلى مركز للأبحاث النووية تحت الأرض ووسط غابة فى البرازيل .

وفى الحقيقة أن هذا الاب ، البطل المزعوم لم يحضر إلى امسا لتحويل الرصاص إلى ذهب فقط . ولكنه تعامل مع ابنه عن طريق اعلانات صغيرة فى الصحف ونظم عمليات خطف كبرى . وبذلك عثر الخبر فى هذا المنزل على قائمة بأسماء عدة شخصيات هامة وخطط لعمليات خطف مجهزة ومعدة للتنفيذ . . هذا السبب سرق المهندس الشاب سيارة فى شهر يناير . لبث عليها الضوء الأزرق وجهاز اللاسلكى وغير لوحة الأرقام الرسمية . ليجعل منها فى النهاية سيارة بوليس استخدمها فى خطف التى أخذ يتتبعها منذ أسابيع .

لذلك لم يكن قتيل الانفجار هو أول ضحية لكنه كان طرفا ضمن عصابة خطيرة . ولم تكن عملية الانفجار سوى عملية تصفية حساب . دفعت الواحد منهم للتخلص من الآخر . ولم يستطع رجال البوليس تحديد هذا أبدا . لأنه فى يوم ٢٨ يناير تلقى النمرول فينا برقية من النمرول « بادن » تقول . إنه تم العثور على جثة لرجل فى الخمسين من عمره داخل حجرته فى أحد الفنادق . وكان الرجل ببساطة هو والد المهندس الشاب الذى أطلق الرصاص على نفسه فى « الصدع » الشمالى بعد أن علم من الصحف ما حدث لابنه .

أما الام فلم تدرك شيئا من كل ما حدث حولها . وخاصة هذه القصة الغريبة التى عاشها أهم رجلين فى حياتها . تلك القصة التى تشبه المغامرات الرخيصة السوداء .